الحكيم نظامي الگنجوي في حياته وآثاره[1]

أ.د. دلال عباس*

الملخّص

تهدف هذه المقالة كما ذكرنا في افتتاحيّة العدد إلى تعريف القرّاء العرب بالشاعر نظامي الكنجوي، وهي تشكّل مقدّمةً لكتابٍ مُعدٍّ للنشر عن نظامي الگنجوي، يتضمّن فصلين: الأوّل عن "تأثير قصّة مجنون ليلى وشعره في الأدب الفارسي، نظامي الگنجوي أنموذجًا"، والثاني: "ناكجاآباد [مدينة اللّامكان أو اللاأين] في إسكندرنامه للنظامي.

اسم الشاعر ونسبه

اسمه الياس ولقبه "نظامي"، "وهو تخلّص للشاعر بحسب اصطلاح شعراء الفارسيّة، فإنّهم يكنّون عن أنفسهم في أشعارهم باسم غير الاسم الخاصّ بهم". گنجوى نسبة إلى مدينة گنجه القديمة، بنتها القبائل التركيّة على ضفاف النهر المعروف بـ"گن جاى" أي النهر الواسع، وقد ظلّت هذه المدينة عامرةً حتّى القرن الحادي عشر الميلادي، أمّا مدينة گنجه الحاليّة فقد بناها الشاه عبّاس الصفوي في العام ١٠١٠م (معين، (١٣٥٢ش) [١٩٧٣م]، مج٦، مادّة گنجه؛ زرّين كوب،

---

١. نُشرت هذه المقالة من قبلُ في مجلّة الدراسات الأدبيّة في العام ٢٠٠٤، السنة الثالثة، العددان ٩و١٠، ص ٢١- ٥١.

*أستاذة الأدب المقارن العربي-الفارسي والحضارة الإسلاميّة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة اللبنانيّة. بيروت - لبنان Email:dalal.abbas@gmail.com

١٣٧٤ش [١٩٩٥م]، ص ١-١٥).

اسم والده يوسف، واسم جدّه زكي، واسم جدّه الأعلى مؤيّد. أمّا أمّه فتنتمي إلى إحدى القبائل الكرديّة، واسمها "رئيسة" وقد ذكرها وذكر خالًا لها يُدعى عمر، في بعض أشعاره (معين، ١٣٣٨ش [١٩٥٩م]).

زوجاته

تزوّج نظامي ثلاثَ نساء على التوالي، كلّما توفّيت زوجة اتّخذ أخرى، والزوجات الثلاث فارقن الحياة قبله. الزوجة الأولى هي "آفاق" وهي جارية كان قد وهبها له ملكُ دربند ضمن هدايا وتحف أخرى كما صرّح هو نفسه، وملك دربند هذا هو نفسه "فخر الدين بهرامشاه" الذي أهدى إليه نظامي كتابه "مخزن الأسرار".

كانت "آفاق" معشوقة الحكيم وحبيبته، نظم قصّة "خسرو وشيرين" في مرحلة حبّه لها، ولم ينهِ نظم هذه القصّة إلّا و"آفاق" قد فارقت الحياة، وتركت وراءها ابنًا اسمه محمّد، ونحسُّ ونحن نقرأ "خسرو وشيرين" بصدق العاطفة، وكأنّ الشاعر يعبّر عن تجربته هو في حبّه الوحيد والخالد. بعد آفاق تزوّج أخرى توفّيت في أثناء نظمه لقصة "ليلى والمجنون"، ويبدو أنّه لم يكن شديد التعلّق بها، فاسمها لم يرد على الإطلاق في "ليلى والمجنون"، وظلّ اسمها غير معروف لكتّاب سيرته.

تزوّج الحكيم امرأةً ثالثة كان لها نصيب من حبّه، ونراه في "اقبالنامه [كتاب إقبال]" يُظهر الأسى الشديد لفقدها، ولكن ليس كمثل حزنه على آفاق التي كانت حبَّه الأوّلَ في عزّ الشباب (مقدّمة "خمسة حكيم نظامي"، مج١، ص، ح؛ آيتي، ١٣٧٦ش [١٩٩٧م]، ص ١٠).

في نهاية قصّة "خسرو وشيرين"، بعد موت شيرين تتجلّى في شعره نغمة حزن شديد، ويتبيّن لنا من طريق التلميح والإشارات، أنّ هذه القصّة ليست متخيَّلة، وإنّما هي قصّة نظامي وآفاق ومحبتهما الشديدة، ويصرّح هو نفسه أنّ رثاءه لشيرين إنّما هو رثاء لآفاق:

فلتأخذنّ من هذه القصّة عبرة

وليذهب بك الظنّ بعيدًا وأنت تقرأها

فذرْفُ الدموع شرطٌ من شروط قراءتِها
ونثرُ ماء الورد المضمّخ بالأسى، على قبر شيرين
فحياتُها كانت قصيرة كومضة
وردةٌ اقتلعتها الرياحُ في عزّ الصبا
وجهُها كان جميلًا كوجه معشوقتي المعبودة
حتى ليُخيّل أنّها هي هي "آفاقي"
الجميلة، الفاتنة، المرحة التي
وهبها لي ملك دربند السعيد

(نظامي، ١٣٣٥ش [١٩٥٦م]، خسرو وشيرين، ص ٤٢٨؛ زرّين كوب، ١٣٧٤ش [١٩٩٥م]، ص ١١١).

يشير نظامي في أوائل كتابه إقبالنامه بأسى ولوعة إلى وفاة زوجته الثالثة، ولكنّه لا يذكر اسمها، وفي المكان نفسه يقول إنّه قدّم في أثناء نظمه لـ"ليلى والمجنون"، أضحيةً جديدة وقد سلبه الموت زوجته. ويقول في هذه الأبيات إنّه كلّما نظم كتابًا قدّم أضحيةً، وذلك من باب التغليب.

ابنه

لم يرزق نظامي سوى بولد واحد، كان يدعى محمّد، كان عمره حين أنهى والده نظم "خسرو وشيرين" سبع سنوات، وفي بداية "ليلى والمجنون" أربع عشرة سنة، وفي بداية "التماثيل السبعة" حوالى ثماني عشرة أو تسع عشرة سنة، وجميعُ الحكم والنصائح الأبويّة التي أطلقها نظامي موجّهةٌ إليه، وهي من أرقى وأهمّ ما ورد في دواوين الشعراء الفرس. في "شرفنامه [كتاب الشرف]" لا يأتي على ذكر ابنه أو غضبه عليه كما يظهر من خلال هذَين البيتَين:

قبل أن يصبح الأبناء والزوجة كالغرباء
وحين يشاركونك الثوب، فصِّلْ آخرَ جديدًا
فمتى أصبح الثوب على مقاس الأبناء
لا تتوقّع منهم حينئذٍ برًّا أو محبّة.

مكان ولادته

ليس هنالك في أشعار نظامي أيُّ دليل يشير الى مكان ولادته، أهو گنجه أم العراق؛ لكنّ جميعَ أصحاب السير يعتقدون أنّه مولود في گنجه، وأنّه عراقي الأصل لامتداحه العراق في شعره، والتعبير عن الشوق إليه، كما ورد في "مخزن الأسرار" وفي "خسرو وشيرين" وفي "شرفنامه" و"اقبالنامه" (نظامي، ١٣٣٥ش [١٩٥٦م]، مخزن الأسرار، ص ١٧٩؛ خسرو وشيرين، ص ٣٦١؛ شرفنامه، ص ٥٣؛ إقبالنامه، ص ٢٩).

مكان إقامته

أمضى نظامي عمره كلّه في مدينة گنجه. وقد أشار إلى هذا الأمر في أكثر من مكان في مثنويّاته؛ لم يغادرها الى أيّ مكان آخر سوى مرّة واحدة في سفر قصير لا يتجاوز الثلاثين فرسخًا إلى إحدى مدن أذربيجان، بناءً على دعوة "قزل أرسلان" السلجوقيّ الذي كان شديد الشوق إلى لقاء الحكيم نظامي، فنزل في إحدى المدن الخاضعة لحكمه على بعد ثلاثين فرسخًا من گنجه ودعا نظامي إليها. كان الملوك يحترمون نظامي لزهده وتقواه؛ لذلك ما إن دخل على قزل أرسلان، حتى أمر هذا الأخير بفضّ مجلس الشراب وتفرّغَ الى الاستماع إلى شعر نظامي (أرمغان، السنة ٦، نقلًا عن صحيفة "ينگى فكر"، تفليس، العددان ٢٠٦-٢٠٧ في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣؛ زرّين‌كوب، ١٣٧٤ش [١٩٩٥م]، ص ٨٤).

حين أعلنوا خبر قدومي
ازداد "الملك" سرورًا على سرور
فهو يحترمني لما اشتهرتُ به من زهد
وليس للأسمال التي يرتديها الزهّاد
فأمرَ أن تُرفع مائدة الشراب إكرامًا لي
وطرد الندمان من مجلسه واستبدل بالمغنّين سجادة الصلاة
وقال: هذا اليوم سنقضيه كلّه حتى المساء
بصحبة نظامي من دون كأس أو غناء

فأنغام شعره أعذب من الألحان
وأقواله كلّها أناشيد (شهابي، ١٣٤٣ش [١٩٦٤م]، ص ١٥٧، ١٥٩).
تفرّغ نظامي في هذا المجلس الذي خُصّص له، لتقديم المواعظ إلى الملوك وتوجيه النصائح لهم:
النصائح التي تليق بالحكّام
والوصايا التي تتفتّح لها الأبواب
أحيانًا تجعل دموعهم تنهمر كالغمام
وأحيانًا تُضحكهم كتفتّح الورود
في ذلك الزمان كان الشعراء الكبار لا يلقون أشعارهم بأنفسهم، وإنّما كان لهم رواةٌ يتلونها، فحين شرع راوية نظامي بإلقاء شعره، أخذ الملك يربّت على كتف الشاعر وهو مصغٍ بإعجاب، يردّد عبارات الاستحسان كما ذكر الشاعر نفسه:
حين شرع الراوي بإلقاء الدرر
امتلأ البساط من شدّة الإعجاب بالكنوز
استعذب الملك حين كان يصغي
إلى شعري حلاوةَ الكلام
وعلى ذكر الحلاوة (شيرين)
وحين وصل الحديث إلى "خسرو وشيرين"
ربَّتَ الشاه بيده على عاتقي
ومن شدّة الإعجاب وضع قُرطًا في أُذْني (المصدر نفسه، ص.ن)

تاريخ ولادته

لم يكن ممكنًا التأكّد من تاريخ ولادة نظامي من طريق التحقيق، فما من تاريخ أو سيرة أشارت إليه، ولكنْ يمكننا الاستنتاج من أبيات وردت في "مخزن الأسرار"، أنّ ولادته كانت في إحدى السنوات الواقعة بين العامَين ٥٣٣ و٥٤٠هـ، لأنّه بدأ نظم "مخزن الأسرار" في العام ٥٧٠م، كما يتّضح من خلال خطابه للرسول (ص) (نظامي، ١٣٣٥ش [١٩٥٦م]، مخزن الأسرار، ص ٢٦)، كما أنّه كان شابًّا حين نظم

"مخزن الأسرار"، كما يتّضح من الشعر الذي تصدّى فيه للشعراء المستّين الذين كانوا يسيؤون إليه في كلامهم، والذي هجا فيه الشيخوخة وامتدح الشباب، وصرح أنّه هو نفسه شاب وهم شيوخ، فإذا كان نظامي في تلك الأثناء في حدود الثلاثين فهو مولود في العام ٥٤٠هـ وإذا افترضنا أنّه كان في الثامنة والثلاثين فهو مولود في العام ٥٣٣هـ، وفي كلّ الأحوال تكون ولادته بين العامَين ٥٣٣ و٥٤٠هـ.

من الشعراء الذين تعرّضوا للنظامي الشاعر "ظهير فاريابي" الذي تعرّض في أحد أبياته من طريق الكناية للشاعر حين قال:

لا شيء أكسدُ من الفنّ بضاعةً في العراق

أنعمْ وأكرمْ بأسطورة شيرين وقصّةِ فرهاد! (شهابى، ١٣٤٣ش [١٩٦٤م]، ص ١٥٧، ١٥٩).

في هذا البيت يقصد ظهير فاريابي "خسرو وشيرين"، ويقصد أنّ نظامي بسبب شعره القصصيّ أدنى رتبة من شعراء المديح.

وفاته

كان عمرُ نظامي حين أنهى "إقبالنامه" آخر كتبه ثلاثة وستّين عامًا وستّة أشهر كما يصرّح هو في هذا الكتاب (نظامي، ١٣٣٥ش [١٩٥٦م]، اقبالنامه، ص ٢٩٧)، ويمكن أن تكون وفاته في العام ٦٠٠ أو ٦٠١ أو ٦٠٢هـ.

مدفنه

كانت مقبرة نظامي تبعد حوالى سبعة فراسخ عن مدينة گنجه، وقد تشكّلت في العام ١٩٢٢ جمعيّة من الباحثين في مدينة گنجه باسم "جمعية نظامي"، جمع أعضاؤها المالَ من الهبات والتبرّعات وعرضِ المسرحيّات، ونقلوا رفات نظامي من موقعه في الصحراء بين باكو وگنجة الى داخل المدينة، وقد انتهت عمليّة نقل الرفات في شهر تشرين الأوّل من العام ١٩٢٣، وبنوا له مقبرة عالية القبّة والرواق[١] في الساحة المقابلة لمسجد الشاه عبّاس، وقد انتهت عمليّةُ البناء في

١. هنالك وصفٌ لمقبرة نظامي أوردته صحيفة «ينگى فكر» المطبوعة في تفليس، العددان ٢٠٦ و٢٠٧ سنة ١٩٢٣، والمقال مترجم بالفارسيّة نشرته مجلّة ارمغان، السنة السادسة.

العام ١٣٠٤هـ.ش [١٩٢٥م].

موضوعات شعره

كان نظامي كأغلب العباقرة الأقدمين يجيد العلوم العقليّة والنقليّة، بارعًا في الأدب وفي علوم العربيّة، مرشدًا كبيرًا في وادي السلوك والعرفان، ممدوح العقيدة والأخلاق، ومثالًا يحتذى به.

العلوم العقلية

كان نظامي متمكّنًا من فنون الحكمة الطبيعيّة والإلهيّة والرياضيّة، وكانت مصطلحات الحكمة تحت نظره وفي متناول يده حاضرةً طيّعة يستخدمها حيث يشاء بسهولة، يقول في أواخر "خسرو وشيرين":

"لم اختر يومًا ترابَ المحراب، وإن كنت دائمَ الإصغاء إلى صوت الحكمة، لديّ الكثير من الكلام الذي يأسر القلوب، وما أقوله خالد لا يُمحى، أنا عالم بتصاريف الزمان، عالم بأحداث العالم وأسرار كلّ ازياج الفلك جدولًا بجدول فككت رموزها بإسطرلاب الحكمة، من يسألني عن أسرار الفلك، أخبره عنها، وما لا أعرفه قليل لا يُذكر. لقد توضّحت لي كلّ أسرار الكون، ومن يحسن الإصغاء يفهم كلَّ الأسرار".

وفي "اقبالنامه" بعد أن يوضح عقائد حكماء اليونان في الخلق والخليقة الأوّلين، يعبّر عن عقيدته على هذا النحو:

يعتقد نظامي أنّ مفتاح الباب المقفل بإحكام على صورة الأزل لم يره أحد مهما يكن، لأنّ خالق الكون العظيم أرفع وأعظم ممّا خلق، فهو الذي فطر العقلَ الأوّل، ونورُ الأبصار مستمدّ من نوره، ليس في هذا الكون الذي هو تجلٍّ لقدرته ما يخفى على عين العقل، وبما أنّ الصورة الأولى منذ البداية يخفيها حجاب عن عين العقل وكي لا تظلّ صورة الخلق الأولى غامضة، نزع العصابة عن عين العقل.

كان نظامي ماهرًا في علوم الطب، وقد استخدم في مواضيع عديدة المصطلحات الطبيّة والنصائح الصحيّة بمهارة، يقول في حفظ الصحّة:

يؤكّد الطبيب نقطة خفيّة

وهذه النقطة هي التي أمر الله بها العباد

يقول: هيّا تغذى ممّا ترغب
فالقليل أو الكثير ليس أمرًا للتباهي
وليكن القليل أو الكثير طازجًا
وحافظ على الاعتدال فهذا هو الأمر التمام

تمثيل بهذا المعنى:

قرأت أنّ جاريتَين في بعض الديار
وصلتا من طريق الصدفة إلى نبع حار
إحداهما قليلة الأكل بائسة من الحياة
والأخرى سعادتها في كثرة الطعام
فماتتا لأنّهما تجاوزتا حدّ الاعتدال
الأولى من الجوع والأخرى من التخمة.

وكان نظامي يمارس بمهارة جميع الصنائع المعروفة في عصره، ومن الجملة الصناعة والزراعة وتربية الماشية كالجياد والبغال والحمير والأبقار والأغنام، وهنالك أبيات من الشعر عديدة متفرّقة في ديوانه تدلّ على تلك المهارة وتلك المعرفة.

عقائده

لقد ذكر البعض أنّه كان شيعيَّ المذهب لمدحه عليًّا، ولكن الحقيقة أنّه كان شافعيًّا، وطبقًا لمذهب الشافعيّ عليٌّ مقدّمٌ لعلمه وفضله. ونظامي في الكثير من المسائل والعقائد الدينيّة المهمّة وفي أصول الدين، أشعري ومخالف للمعتزلة، وهذا المعنى بيّنٌ وواضحٌ في أكثر من مكان في أشعاره. فبالنسبة إلى موضوع "رؤية الله"، أهي ممكنة أم لا، لكلّ طائفة من طوائف المسلمين عقيدة خاصّة، يقول المعتزلة بعدم إمكانيّة الرؤية بالعين الظاهرة، وإنّما بعين العقل والباطن، ويقول الأشاعرة إنّ الرؤية بالعين ممكنةٌ مع التنزيه عن الجهة والزمان والمكان والمقابلة، وعلى هذا النحو رأى رسولُ اللهِ اللهَ عزّوجلّ ليلةَ المعراج، على عكس المشبِّهة الذين يقولون إنّ رؤية الله ممكنة بالمقابلة وبالجهة والمكان كسائر

الأجسام.

نظامي أشعريّ ويقول إنّ النبيّ ليلة المعراج رأى الله بالعين الظاهرة مع التنزيه عن الجهة والمكان والمقابلة، ويتّهم المعتزلة بالعمى لأنهم لم يقولوا برؤية النبي (ص) لله بالعين الظاهرة (نظامي، ١٣٣٥ش [١٩٥٦م]، اقبالنامه، ص ٢٧٩)، كذلك فإنّ نظامي بالنسبة إلى موضوع الجبر والتفويض لا يقول ما يقوله المعتزلة من أنّ الإنسان مخيّرٌ في أفعاله ليستحقّ الثواب والعقاب لأنّ الله عادل وعدله مطلق، والقول بالجبر معناه نسبة الظلم إلى الله جلّ شأنه وإنّما يقول ما يقوله الأشاعرة: إنّ الإنسان مجبر في جميع أعماله خيرًا كانت أم شرًّا، ومحاسبة العبد على أفعاله الجبريّة عدلٌ من الله وليس ظلمًا، لأنّ القبح لا ينسب إلى الله تعالى، وما يعدّ ظلمًا بالنسبة إلى الناس هو عدلٌ بالنسبة إلى الله ولا يقبّح منه شيء تعالى.

يقول في خسرو وشيرين ما معناه:

"أنا لا أستطيع وأنا أطلب رحمتك أن أتوسّل بعدلك، لأنّني وإن أكُ مجبرًا على فعل الخير والشر، فإنّ ثوابك أو عقابك لي عدل منك، فالظلم والقبح ليسا من صفاتك والأفضل أن أتوسّل بفضلك وأرجو رحمتك".

عقائده الفلسفيّة

على الرغم من أنّ نظامي متعلّق بالأصول والأحكام الإسلاميّة، لكنّنا نراه بين الحين وآخر يؤيّد بعض المسائل الفلسفيّة التي لا تنسجم مع الأصول الإسلاميّة، وقد ورد ذلك في أماكن عدّة من بينها الحوار الذي جرى بين خسرو وأميد الحكيم:

السؤال:

لقد قيل لي إنّ هنالك طريقًا بعد الموت، حدثّني حديثَ ذلك العالم.

الجواب:

لقد قدّم الشيخ المعلّم الجواب، إنّه المصباح الذي ينير العالم.

أنت ذلك النور الذي كانت له الولاية على قبّة الأفلاك قبل أن تصاحب التراب والآن، إن أنت سُئلت عن تلك العلامات، فإنك لا تتذكّر كلمة واحدة عنها، من لا يستطيع تذكّر قصّة الليلة الماضية، بإمكانه أن ينسى الليلة هذه.

كما وأنّنا يمكن أن نعدّ نظامي أحد المرشدين الكبار في العرفان والسير والسلوك، وعلى الرغم من المبالغات التي نسبها أصحاب السير إليه لكن ما يستنبط من أشعاره، أنّه اجتاز المراحل والمقامات الباطنيّة والقلبيّة، وتطبّع على رياضة النفس، وقد عبّر في مخزن الأسرار عن كيفيّة تربية القلب في خلوتَين، وعن ثمر تينك الخلوتَين وكذلك تكلّم في عدّة مواضع عن أهل العزم magnetism ومقدرتهم في السيطرة على الموجودات.

في مخزن الأسرار تحدّث عن هنديَّين من أهل العزم، نويا على موت السلطان محمود، فمرض محمود مرضًا شديدًا، وجاء بعد ذلك صاحبُ همّةٍ مسلم، فأبطل تعويذة الهنديَّين وخلّص محمود من الموت.

وفي شرفنامه انتقد قادةُ الجيشِ الإسكندرَ لإيمانه بأصحاب الهمّة، وقالوا له:

يجب أن تفتح الدنيا بحدّ السيف، ماذا سينفعك الصلحاء إن كانت الهمّة هي السلاح في أرض المعركة، مرنا نتلف كلّ ما نملك من عدّة، لم يُحر الإسكندر جوابًا، وما إن وصل إلى دربند حتى حاصر قلعتها التي كانت ملجأ المغيرين وقطّاع الطرق أربعين يومًا، ولم يتمكّن الجيش من فتحها، فطلب الإسكندر مساعدة أحد النسّاك من أهل العزم، وتمكّن بحملة واحدة أن يهدم القلعة، وقدّم بهذا جوابًا عمليًا لقادة العسكر ليصدّقوا أهل العزم.

كان نظامي على الرغم من زهده وتقواه وتمسّكه بأصول الإسلام، متعصّبًا لوطنة معتزًّا بأمجاد إيران، ولهذه الغاية نظم قصّة «خسرو وشيرين» و«هفت پيكر» [التماثيل السبعه]، وفي هاتَين القصّتَين أظهرَ عظمةَ إيران والإيرانيين للملأ، لذلك وُجِد في عصره مَن انتقده لإحيائه عقائد كيان و ساسان وعاداتهم، وهو يشرح في بداية «خسرو وشيرين» لومَ أحد أصدقائه له، واتهامه له بالتعصّب القوميّ ومدح عبدة الأوثان والزرادشتيّة وتجديد الكلام على بيوت النار. كما يشرح في آخر الكتاب حملة المنكرين عليه وتعرّض الحسّاد له ونسبة الكفر والزندقة إليه، لذكره الزند وزرادشت باحترام ومدحه لعدل ملوك إيران وكرمهم.

يسترعي النظر في ديوان نظامي كلّه أنّ قارءه لا يعثر فيه على لفظة ركيكة واحدة

أو كلمة مبتذلة، ولم يتعرّض لأحدٍ بالهجاء من بداية حياته حتى نهايتها. وحين يردّ على حسّاده ومنتقديه يدعو لهم بدلًا من هجائهم، حتى في الأبيات التي يصف فيها لقاء العاشقين يشرح كلَّ شيء بلغة شعريّة راقية، من دون أن يلجأ إلى استخدام الألفاظ المبتذلة والمباشرة، فيصف لقاء خسرو وشيرين بكلام راقٍ يصل إلى حدّ الإعجاز، كذلك يصف اللقاءَ الأوّل بين الإسكندر والجارية الصينيّة بعصمة وحياءٍ ورقيّ لا مثيل له بين الشعراء، اللّهم إلّا الفردوسي الذي لا تُلاحَظ في ديوانه كلّه على الرغم من ضخامته كلمة واحدة نابية أو مبتذلة. لكنّ سائر الشعراء الكبار لم يصلوا إلى هذه الحدود من المثاليّة والعفاف، ولم يتمكّنوا من تفادي الألفاظ الركيكة المبتذلة.

كما أنّنا من الممكن أن نقول إنّ نظامي من هذه الناحية أعلى من الفردوسي، لأنّه لم يتطرّق قطّ إلى التشبيب بمعنى العشق بين الرجال والغلمان في حين أن ذلك ظهر في ديوان الفردوسي.

وقد ذكرنا أنّ نظامي لم ينظم شعرًا هجائيًا قطّ، وأنّه دعا الله أن يخلّص شانئيه من عداوتهم وحسدهم، في حين أنّ الفردوسي هجا السلطان محمود بعد أن تغيّر بتأثير الحساد وسعاية الأعداء.

شاعريته:

من يريد أن يقوّم شاعريّةَ الحكيم "نظامي" بالذوق السليم والرأي المستقيم "كمن يزن الجبل بواسطة الميزان"، فكيف يكون حال من يعتمد الذوق غير السليم والسليقة الفجّة والرأي المعوجّ؟ (شهابي، ١٣٤٣ش [١٩٦٤م]، ص ١٦٠).

لقد ترك لنا گنجوی قصّة العالم في ستّ خزائن على خمس بحور مثنويّة، بكلام لم يصل إليه أحدٌ قبلَه ولا بعده من أساتذه القول وأهل الغور والتأمّل، على الرغم من محاولة عشرات الشعراء كأمير خسرو وخواجو وجامي بتقليده واتباعه، ونظموا المخمّسات، ولكن أيًا منهم لم يتعدَّ طورَ التقليد، ولم يترك دفترًا يألفه الذوق، جديرًا بالقراءة والدرس.

كتابه الأوّل: مخزن الأسرار

نظمه نظامي على البحر السريع ويشتمل تقريبًا على ٢٢٦٠ بيتًا، وقد كان هو أوّل مَن استخدم هذا الوزن في المثنوي والقصص الشعري، كما أنّ موضوع مخزن الأسرار ومضامينه أيضا بكرٌ ووليدة فكر هذا الشاعر القدير كما يصرّح هو:

لم أقبل هبةً من أحد، ولم أقل سوى ما أمرني بقوله القلب. أنهى نظامي مخزن الأسرار وكان في حوالى الثلاثين من عمره (نظامي، ١٣٣٥ش [١٩٥٦م]، مخزن الأسرار، ص ١٩؛ شهابى، ١٣٤٣ش [١٩٦٤م]، ص ٥٠)، وقد صدر باسم الملك فخر الدين بهرامشاه أرزنجان، وانتهى من كتابته في العام ٥٧٢هـ.ق، وبهرامشاه هذا بحسب تذكرة "الأقاليم السبعة" هو ابن داود وحفيد منگوچک غازى، الذي كان من جملة حشم ألب أرسلان ومقرّبًا من الخليفة القائم بأمر الله، وقد عيّنه ألب أرسلان على حكومة أرزنجان وتوابعها... وقد قدّم بهرامشاه لنظامي جائزةً على مخزن الأسرار خمسه آلاف دينار ذهبًا ومجموعة من الخيل والبغال والملابس الفاخرة. وقد أورد نظامي في فاتحة الكتاب سببَ نظمه له، وهو يتضمّن عشرين مقالة تعليميّة، وفي آخر كلّ مقالة يورد حكايةً مناسبة.

يعرض نظامي المقالات والحكايات ببيان رفيع حافل بالصور الشاعريّة والمشحون بالتلميحات والإشارات المتعلّقة بالدين والحكمة والنصائح الأخلاقية (زرّين كوب، ١٣٧٤ش [١٩٩٥م]، ص ٤٦) وذمّ عيوب المجتمع في عصره، ومدح الإنصاف والعدل، وترجيح العزلة وقلّة الاختلاط بالناس.

تكلّم في المقالة الأولى على مرتبة آدم وعلوّ مقامه وأهميّته في عالم الخلق، وخلافته الله في الأرض، ومعصيته التي أبعدته عن عالم العشق والاتحاد، ورمت به نحو عالم العلم والسعي والنّصبِ والاجتهاد، وابتلائه بحسد إبليس، ويؤكّد نظامي أنّ توبة آدم هي التي انجته من محنته، ثمّ يروي قصّة "الملك اليائس" الذي كانت خطيئته التي ندم عليها: ظلم الفقراء والأيتام والمعدمين والأرامل، فنال غفران الله، والشاهد هنا أنّ العودة إلى الله لا تترك مكانًا لليأس.

المقالة الثانية تدعو إلى المحافظة على العدل ومراعاة الإنصاف، وعدم التعدّي

على الضعفاء، ويمثّل لذلك بقصّة أنوشيروان العادل، الذي أوصى وزيرَه بالعدل والإنصاف، واستنتج الشاعر من وصايا أنوشيروان أنّ أساسَ العدلِ أدخالُ الفرح والسعادة إلى قلوب الخلق وأنّ من يستحقّ اسمَ الإنسان هو ذلك الذي يُتعب نفسَه من أجل راحة الآخرين...

في المقالة الثالثة: يتكلّم على انهيار العالم واختلال حوادثه، ويطالب الإنسان بأن ينشر السلام في العالم، وأن يعمّم الوفاء قولًا وفعلًا، وأن لا يغترّ بالدنيا الدنيّة، ويحاذر ما استطاع من مصاحبة أهل الدنيا، ثم يروي حكاية النبي سليمان والفلّاح العجوز تأكيدًا لهذا المعنى نفسه.

في المقالة الرابعة: يؤكّد أنّ من واجب الملوك رعاية الخلق، ويحذّر الملوك من أنّ ملكهم صائر إلى زوال، ويدعو المظلومين للعمل على رفع الظلم عنهم. ويروي في هذه المقالة قصّة المرأة العجوز التي اشتكت إلى السلطان "سنجر" ظلمَ عمّاله، وهذه القصّة ليست سوى ذريعة للشكوى من ظلم العصر، وعدم اهتمام سنجر بتظلّم العجوز، إشارة إلى أنّ لا أمل من إصلاح الأوضاع المتردّية في عصره.

اللافت في المقالة الخامسة كلام الشاعر على الشيخوخة على الرغم من أنّه لم يكن قد بلغ الأربعين من العمر بعد، وينصح مَن أشرفَ شبابُه على الانقضاء أن يتجنّب الخلق ولا يقبل منّتهم، وأن يقتع بما في يده وبما حصّله بنفسه، وأورد كشاهد قصّة المرأة العجوز التي كان جوابُها للشاب الذي لامها على الحياة الخشنة التي تحياها، أنّها تتحمّل المشقّات هذه كي لا تمدّ يدَها بالسؤال له أو لغيره.

في المقالة السادسة: دعوة إلى التفكير في الله وفي إبداع صنعته، ودعوة إلى التفكير بأحوال العالم، كما يوصي بالاهتمام بأحوال القلب، والتسليم للقضاء، وتقبّل المحن والآلام، لأنّ الألم في هذا العالم هو بشارة الفرح، ولتأييد هذه المضامين أورد حكاية "الصيّاد والكلب والثعلب".

المقالة السابعة تتضمّن الكلام على أفضليّة آدم على سائر المخلوقات، وعلوّ مرتبته، وهذا يستلزم الاهتمام بعالم القلب والسعي وراء رياضة النفس التي لا

تتحقّق رفعة الإنسان بدونها، وتؤكّد هذا المعنى حكاية "فريدون والغزال".

في المقالة الثامنة كلام على حسن الخليقة وأقدميّة العالم، وهنا يعدّ الشاعر الخليقة قطرةً من عالم "الفيض"، والدنيا التي لم يكن قد ظهر فيها الإنسان بعد مرحلة الهدوء بالنسبة إلى عالم الخلق، وما حدث بعد ذلك من اضطراب ومشاغل في الدنيا، إنّما سببه وجود الإنسان، لذلك هو يوصي الإنسان بأن يتجنّب الحرص والطمع بهذه الحياة، ولتأييد هذه الفكرة يروي حكاية "البقّال والثعلب".

في المقالة التاسعة: يوصي أيضًا بمراعاة علوّ الهمّة، وضرورة ترك العلائق الدنيويّة، والتفكير بالعواقب، والاستعداد للمستقبل، لأنّ الدنيا ليست بدار القرار، وإنّما هي صحراء على الإنسان اجتيازها وعبورها، وهذا العبور ليس اختياريًّا، لذلك يحتاج الإنسان إلى مركب ليتمكّن من اجتيازها، وهذا المركب الذي عليه أن يبحث عنه ما هو إلّا الدين ولا شيء غيره.

تأتي المقالة العاشرة تتمّة للمقالة التاسعة، يطرح فيها علامات آخر الزمان، التي هي في عصره سوء ظنّ الناس بعضهم بالبعض الآخر، والقحط والجفاف، والهزّات الأرضيّة التي أصاب بعضُها مدينته، وشيوع الظلم والفساد، وهذه الدنيا الدنيّة التي يصوّرها كدليل على وصول الزمان إلى نهايته يسمّيها في المقالة الحادية عشرة، "مركب الغم"، والمشقّة التي يعانيها المسافر في هذا المركب ناشئة عن الخوف والقلق الذي يعانيه كلّ واحد من الركّاب في هذا المركب خوفًا على حياته وعلى بضائعه في هذا اليم المتلاطم الأمواج، فيضطر إلى رمي بضائعه في اليم، والتخلّص من أعبائها ليتمكّن من النجاة، وحين يتخفّف من أحماله ينجو من أمواج الطوفان، وتأتي قصّة الموبذ الحكيم في هذه المقالة تطبيقًا عمليًّا لما يريد الشاعر أن يوصله إلى القارئ، فهذا الموبذ الذي يرى أسراب الطيور القادمة المبشّرة بالربيع، يقول بترك هذه الدنيا بما فيها من فساد من أجل حياة أخرى قادمه أجمل وأنضر، والاستعداد لوداع هذا المنزل من أجل المنزل الآخر، وهذا هو أيضًا موضوع المقالة الثانية عشرة التي يورد فيها مناظرة بين حكيمَين خلاصتها

أنّ النـزاع والجـدال مـن أجـل هـذه الدنيـا الفانيـة لا جدوى مـن ورائـه، وأنّ وداع هذا المنـزل هـو وحده الطريـق الموصل إلـى النجاة مـن المفاسـد والمخاطر.

وتأتـي المقالـة الثالثـة عشـرة لتعيد تأكيـد ضرورة تـرك العلائـق الدنيويّة، اسـتعدادًا لتـرك هـذا المنـزل وتوديعـه، لأن ينبـوع هـذه الحيـاة مـا هـو إلّا سـراب خـادع، وعلى الإنسـان أن لا يتعلّـق بمـا فـي هذه الدنيا من أمـوال وذهب وجواهر، يسـتوي في ذلك الجميـع العامّـة والفقهـاء والمتصوّفـة، وهذا ما تشـهد عليه قصّة الحـاج والمتصوّف اللذيـن لـم يتخلصـا نهائيًّا من وسـواس هذه الحيـاة الدنيـا، لذلك نراهمـا يتنازعان علـى مـا فيهـا من جواهـر "العلائـق الدنيويّة" وتأتـي المقالـة الرابعة عشـرة مؤيّدة لرأي نظامـي بضـرورة التخلّـي عـن العلائـق الدنيويّـة، للوصـول إلـى "اليقظـة"، والتـي من مسـتلزماتها تـرك الغفلـة وتـرك النـوم والانتبـاه والتيقّـظ إلـى المخاطـر التـي تعتـرض سـبل النجـاة، وضرورة الالتـزام بالصدق والحقيقـة، ويدلّل على ذلـك بقصّة "الزاهد والملـك الظالـم" التـي يصـوّر فيهـا الشـاعر أحـوال الدنيـا، وفيها يذكـر الزاهـد الملك الظالـم بفوائـد الصدق ولـوازم الملك.

وفـي المقالـة الخامسـة عشـرة يركّز الشـاعر على ضـرورة ترك الحسـد اسـتعدادًا لوداع هـذه الدنيـا، وينتقـد فـي هـذه المقالـة النـزاع بيـن الطوائـف المختلفـة وادعـاء كلّ طائفـة أنّهـا الأفضل، وينتقد كذلك العجائز الذين يسـعون وراء الـزواج، ويورد حكايةَ الأميـر الشـاب الـذي أمر بقتل كبار السـن الذين كانـوا يقومون بأمر الملـك، واعتماده علـى الشـباب وحدهـم، وفي هـذا المقـال يعرّض الشـاعر بالذئـاب الذيـن يحاولون افتـراس الغـزلان، وهـو يعني الشـعراء الكبـار الذين وجّهـوا إليه سـهامَ نقدهم.

ويتابـع فـي المقالـة السادسـة عشـرة الدعـوة إلـى تـرك هـذا المنـزل" الحيـاة الدنيـا" والعلائـق الدنيويّـة، معيـدًا الـكلام الـذي ورد في المقـالات السـابقة، مصوّرًا الفسـاد فـي عصـره، داعيًـا الإنسـان إلـى تحمّـل مسـؤوليّته وعـدم تحميـل أخطائة إلـى غيره والتنصّـل من مسـؤليّته عن أخطائه ناسـبًا ذلك إلى الدهر وسـوء الحـظّ، ويمثّل على ذلـك بقصّـة الطفـل المجـروح، التـي يركّـز فيهـا على عـدم الاعتمـاد على الصديق الجاهـل لأنّـه أكثـر ضررًا مـن العـدوّ العاقل.

ويتابع كذلك في المقالة السابعة عشرة تحذيرَه من هذه الدنيا الغرّارة، وينصح بالقناعة والزهد، ويعود في المقالة الثامنة عشرة إلى التذكير بمساوئ الحسد وقلّة الوفاء لدى معاصريه، وكأنّما هو يبحث عن مجتمع فاضل غير هذا المجتمع الذي يعيش فيه يكون ظاهر الناس فيه كباطنهم.

وتركّز المقالة التاسعة عشرة على استقبال الآخرة والاعتبار وعدم الانشغال بشرور أهل العصر، وأخذ العبرة للنجاة من مكر الشيطان، واتّباع تعاليم الدين، مذكّرًا بأصل النفس العلوي، وخلافة الإنسان لله في الأرض، ويعود في المقالة العشرين إلى الشكوى من أهل الزمان ومن غير المنصفين مشيرًا إلى وقاحة أهل العصر، وكأنّ عصره صورة للمدينة الجاهلة التي يجب أن تُخرَّب، وتُبنى على أنقاضها مدينةٌ جديدة يحكم الشرعُ بمفهومه الدقيق والمحدّد جميعَ شؤونها ... وتأتي قصّة "الصقر والبلبل" تمثيلًا على القيل والقال، وأنّ أهل المعنى لا يكثرون الكلام، أمّا المدّعون فهم كثيرو الهذر... إنّه نقدٌ كما هو الأمر في مقالات مخزن الأسرار كلّها للمجتمع المعاصر لنظامي الذي يسود فيه الكذب والنفاق والرياء، ويغلب العمل بظاهر الشريعة لمصلحة أولئك الذين يريدون التحكّم برقاب الناس من طريق خداعهم، فتصبح الشريعة مجرّد شبكة ينصبها المراؤون ليعلق فيها السذّج من الناس، والسبيل الوحيد للراحة من هذا المجتمع المنافق هو في العودة إلى الحياة البدويّة للتخلّص من مخادعي العوام، وفي كلّ الأحوال، نظامي يتابع بحثه عن المدينة الفاضلة التي لم تكن معالمُها قد تحدّدت في ذهنه بعد.

الكتاب الثاني: خسرو وشيرين[1]

على بحر الهزج المسدّس المقصور والمحذوف يشتمل تقريبًا على ٦٥٠٠ بيت من الشعر، وهذا البحر استخدمه قبل نظامي "فخر الجرجاني" في مثنوي "ويس ورامين" (زرين كوب: ١٣٤٣ش [١٩٦٤م]، ص ١٦٩)، ولكن لا مجال للمقارنة بين الكتابَين، فالمقارنة بينهما تشبه المقارنة بين قنديل الليل وسهيل اليماني، أو

١ اعتمدنا في دراسة خسرو وشيرين على النسخة التي حقّقها «عبد المحمد آيتي، نشر شركة سهامي، كتابهای جيبی، تهران ١٣٧٦ش [١٩٩٧م]

سراج العجوز والشمس المنيرة.

قدّم نظامي هذا الكتاب باسم "أبو طالب طغرل بن أرسلان الملك السلجوقيّ والأتابك شمس الدين أبو جعفر ايلدگز الملقّب ببطل العالم" وباسم أخيه قزل أرسلان وهما الأخوان غير الشقيقَين لأرسلان والد طغرل وحارسا ملكه. بدأه في حدود العام ٥٧٣ وأنهاه في حدود العام ٥٧٦هـ.

لقد عبَر نظامي من إقليم الزهد في مخزن الأسرار إلى دنيا الحركة والذوق والمحبّة في خسرو وشيرين، فهذه المنظومة تمجيد للحبّ العفيف الخالد...

تستمدّ قصّة خسرو وشيرين جذورَها من التاريخ: فبطل القصّة خسرو ابن الملك هرمزد الذي جلس على العرش بعد أبيه كسرى، رُزق بعد طول انتظار بصبيٍّ نادر المثال جمالًا وكمالًا، وكان الشاه يحبّه أكثر من حياته، وقد أمر عماله أن يحكموا بين الناس بالعدل، ليدعو الشعب لابنه بالبقاء، وصادف أن خرج خسرو الشاب مرّةً إلى الصحراء ليتنزّه بصحبة أصدقائه وحاشيته، وقبيل عودتهم، دخلوا احدى القرى وأقاموا مجلسَ لهوٍ وشراب في منزل أحد الدهاقين من دون إذنه، واعتدى أحدُ مرافقي الأمير على أحد الفلّاحين، وحين وصل الأمر إلى هرمز وكان قد عاهدَ نفسَه بتطبيق العدالة، أمر أن يوهب حصان خسرو للدهقان، والغلام المعتدي إلى الفلاح، وعوقب المغنّي الذي أزعج الجيران... واعتذر الأمير لأبيه فسامحه، وفي تلك الليلة رأى في منامه جدَّه كسرى فأخبره أنّه سيعوّض ما خسره، صبيّة حسناء تدعى "شيرين" وحصانًا أصيلًا باسم "شبديز" ومغنيًا باسم "باربد"، وعرشًا مزيّنًا بالجواهر...

بعد ذلك بمدّةٍ أخبره نديمُه الرّسام "شاپور" أنّ في الجهة الثانية من بحر "دربند" سيدة تُدعى "سميرا" تحكم المنطقة الممتدّة من أران إلى أرمينيا، وأنّ لها ابنة أخ تُدعى شيرين هي وريثتها الوحيدة وتملك كذلك حصانًا يدعى "شبديز".. تعلّق قلبُ الأمير الشاب بشيرين قبل أن يراها، فأرسل شاپور بحثًا عنها...وبعد شهر من العناء وصل شاپور إلى مدينة الأرمن، وكانت شيرين عندها تتنزّه قرب الجبال بصحبة أترابها، فلحقهنّ شاپور، وعلّق على إحدى الأشجار رسمًا لخسرو،

وما أن رأته شيرين حتى ملك عليها قلبها وعقلها، وتكرّر هذا الأمر أكثر من مرّة، يسبق شاپور الفتيات فيعلّق الرسم ويتخفّى هو... إلى أن وقع نظر شيرين على شاپور فاستدعته لتسأله عن سرّ هذا الرسم والذي تراه أينما توجّهت، فأخبرها الرسام بقصّة خسرو وعشقه لها، وسلّمها خاتمه، ونصحها أن تذهب إلى المدائن بحثًا عنه، وهكذا كان، طلبت شيرين من عمّتها الحاكمة أن تعيرها الحصان "شبديز" موهمةً إيّاها بأنّها تريد أن تتنزّه مع رفيقاتها، حيث غافلتهنّ وتوجّهت نحو المدائن... في هذه الأثناء كان خسرو قد غادر المدائن سرًّا بعد اتهامه زورًا بالتآمر على أبيه، وقصد أرمينيا متنكّرًا، وتشاء الصدف أن يتوقّف في أثناء الطريق قرب نهر كانت شيرين تغتسل فيه، فرآها عاريةً وغضّ بصره خجلًا، وفي اللحظه نفسها رأته شيرين، وتابعا بعد ذلك طريقهما من دون أن يتعارفا: وجاء وصف هذا اللقاء غير المتوقّع شعرًا رائعًا، بل من أجمل أشعار نظامي... وصلت شيرين إلى المدائن وعلمت ما جرى لخسرو، واستقبلها اتباعه بالترحاب وأسكنوها في قصر خارج المدينة، وخسرو قضى الشتاء في أرمينيا ضيفًا على عمّة شيرين، إلى أن وصل شاپور وأعلمه أنّ شيرين في المدائن، فأرسله وراءها مع مرافقين وأتباع عمّتها الحاكمة لإعادتها إلى ديارها مكرّمة، وفي هذه الأثناء وصله أنّ أعداء أبيه قد خلعوه عن العرش وسملوا عينيه، وأنّ كبار القوم يطلبون إليه أن يعود إلى دياره ليتولّى الحكم. وهكذا تعود شيرين إلى ديارها ولا تلتقي بخسرو، ويعود خسرو إلى دياره ويقضي على مخالفيه ولكنّه لا يحظى برؤية شيرين...

ولكنّ الظروف تشاء أن يتآمر بهرام چوبين على خسرو الذي يجد نفسه من دون نصير، فيفرّ إلى ديار الأرمن، ويسعد برؤية شيرين ويقضيان معًا أيامًا جميلة، ولكنّ شيرين لا تسمح لخسرو أن يختلي بها، وتنصحه بالعمل لاسترداد ملكه، وحين ييأس من وصالها يغضب ويغادر ديارها إلى القسطنطينيّة طالبًا مساعدة ملكها لاسترداد ملكه، فيساعده بعد أن يزوّجه ابنته مريم التي تأخذ عليه عهدًا أن لا يقترب من أمرة غيرها...وبعد أن يستردّ خسرو ملكه بمدةٍ تموت عمّة شيرين فترث ملكها وكنوزها، ولكنّها تترك كلّ شيء وراءها وتسافر إلى المدائن، وتنزل

في القصر الذي كانت قد نزلت فيه أوّل مرّة، ولكنّ اللقاء صعب ومحرّم، في هذا الجزء من المنظومة يُظهر نظامي مدى حبّ خسرو لشيرين التي بقدر ما تحبّ خسرو تحرص على عفّتها وشرفها، وترفض عرضه الذي يطلب إليها فيه أن تبادله الحبّ سرًّا... في ذلك القصر المنفرد الذي تعيش فيه شيرين ما كانت تذوق من الطعام سوى الحليب، وبما أنّ وصول الحليب إلى القصر كان صعبًا وكانت تريد أن يصل إليها بأيسر السبل، حفر الفنان فرهاد نفقًا في الجبل يصبّ فيه الرعاة الحليب فيصل إلى حوضٍ داخل القصر، فرهاد يتتيّم حبًّا بشيرين وهي تعجب بعمله إعجابًا شديدًا، وحين تحاول أن تقدّم له بعض الجواهر عرفانًا بالجميل يرمي ما أعطته إيّاه تحت قدميها ويغادر القصر ميممًا شطر الصحراء، وتسير قصّة عشق فرهاد لشيرين على كلّ شفةٍ ولسان، وهذا ما يهيّج أشجان خسرو ويثير غيرته، ولكي يشغل فرهاد عن عشق شيرين يطلب إليه أن يحفر الجبل ويزيله من مكانه ويعطيه بدلًا عن ذلك ما يشاء،... وقبل أن يبدأ فرهاد العمل يرسم صورة شيرين التي تجلس أمامه مساءً بعد مشقّات الحفر يرتاح بالنظر إليها.

تزور شيرين مع صويحباتها "بيستون" حيث يعمل فرهاد، وتبدي إعجابها بعمله، وفي أثناء عودتها يتعثّر الحصان وتكاد الفارسة أن تقع فيخلّصها فرهاد ويوصلها إلى قصرها... تزداد غيرة خسرو، فيرسل إلى فرهاد من يخبره بموت شيرين، فيرمي بنفسه من أعلى الجبل ويموت شهيدَ حبّه المستحيل...وبعد أحداث ومفارقات وبعد موت مريم يتزوّج خسرو من شيرين، ويعود للتعلّم على يد الحكيم أميد، ولكن وليّ عهده شيرويه من زوجته مريم العاطل من العلم والثقافة، يتآمر على أبيه ويستولي على العرش ويسجنه، ولا يسمح لأحد بمقابلته سوى شيرين وبعد مدّة يأمر بقتله، ويتقرّب إلى شيرين التي ترفض طلبه وتقتل نفسها، ثم تُدفن الى جانب حبيبها.

في هذه القصة وفي كلّ ما فيها من جزر ومدّ تطغى صورة شيرين على جميع الأحداث وعلى جميع الشخصيّات ... دائمًا تمثّل شيرين قمّة الجلال والوقار المعنويَّين والأخلاقيَّين محصّنة بالعفة والكرامة وقوّة الشخصيّة والمثاليّة...

وشيرين بهذه الأوصاف والخصائص الملهمة، سعى نظامي في تصويره لشيرين وفي الأشعار التي وضعها عنها أو على لسانها أن تكون محبوبة الجميع، وحين تقتل نفسها على المذبح حبًّا لخسرو يبكيها الشاعر ويبكي معها حبّه لزوجته المحبوبة آفاق التي خطفها الموت وهي في عزّ الصبا.

كأنّ "خسرو وشيرين" جاءت تخليدًا لعشق الشاعر لمحبوبته من خلال وصفه لشيرين وحبّها لخسرو.

لقد قلّد الشعراء بعد نظامي قصّة خسرو وشيرين، فكتبوا قصصًا باسم "خسرو وشيرين" و"شيرين وخسرو" و"شيرين وفرهاد" و"فرهاد وشيرين" والأكثر شهرة من بين الشعراء الذين نظموا هذه القصة "أمير خسرو دهلوي" و"عرفي شيرازي" و"وحشي بافقي" و"وصال شيرازي" و"هاتفي". كذلك فإنّ الإشارة إلى خسرو پرويز وشيرين وفرهاد وبيستون متفرّقة في الشعر الفارسيّ كلّه، وقد صاغ منها الشعراء مضامين رائعة. والآن فإن فرهاد رمز لأعمال الرسام والنحات "پرويز تناولي" ومضامين بعض أشعار إسماعيل شاهرودي (آيتي، ١٣٧٦ش [١٩٩٧م]، ص٢٤-٣١).

الكتاب الثالث: ليلى والمجنون

أشهر قصص الحبّ العذريّ، قصّة قيس بن الملوّح وليلى التي صوّرت الحبّ الأمثل الذي لا ينتهي باللقاء، يبدأ نظامي قصّته هذه من لحظه ولادة قيس "المجنون" إلى لحظه لقائه بليلى وتتيّمه بها حبًّا، إلى لحظة مرض ليلى قهرًا ووصول الخبر إلى قيس الذي مات حزنًا عليها، ثمّ جُمعت في ما بعد رفاته إلى رفاتها.

قصّة "ليلى والمجنون" ليست فقط قصّة الحبّ المستحيل، وإنّما هي أيضًا تصوير المجتمع المنغلق على نفسه، الخاضع لسلطة الأعراف والتقاليد الغاشمة... وهي أيضا بحث عن مجتمع عادل خالٍ من هذه الأعراف البالية.

الكتاب الرابع: هفت پيكر [التماثيل السبعة]

بعد تسع سنوات من انتهاء نظامي من تأليف "ليلى ومجنون" وبعد سبع عشرة سنة من إنهائه لقصّة "خسرو وشيرين"، كتب باسم السلطان علاء الدين كرب

أرسلان في حدود العام ٥٩٣هـ، "التماثيل السبعة" الذي يتضمّن سبع أساطير مبتكرة ومقدّمة ونتائج مهمّة لم يُسبق إليها، ويعتقد عدد من العلماء أنّ هذا الكتاب أرفع درجةً من كتبه الأخرى كلّها، لأنّ موضوع الأسطورة التي هي قصّة "بهرام جور" من أجمل الموضوعات، كما أنّ لغته فيه منتقاه، مصفّاة، لا ركاكة فيها ولا ابتذال (زرّين كوب، ١٣٤٣ش [١٩٦٤م]، ص ١٦٩).

يمتزج في قصّة بهرام جور العشقُ بالحياة الواقعيّة، واستغراق هذا الملك في الملذات لم يمنعه من الاهتمام بالحرب والسياسة، ولكنّه أوجد خلاءً في حكمة، لم يكن جبره ميسّرًا ولا سهلًا. يبدأ الكتاب من قصّة ولادة بهرام جور الذي كان المنجّمون قد نصحوا والده الذي كان أولاده يموتون حين ولادتهم، أنّ هذا الطفل يجب أن يتربّى في ديار العرب، فأوكل أمر تربيته إلى الملك النعمان. "ولكن نعمان النظامي وابنه المنذر كانا في اليمن وليس في الحيرة كما يقول التاريخ الصحيح"، وفي اليمن بنى النعمان قصرَ الخورنق الذي نشأ فيه وتربّى بهرام جور (ولكن التاريخ يقول إنّ الخورنق في الحيرة، والقصر الذي وُجد في اليمن إنّما هو قصر غمدان"... بعد وفاة الملك النعمان تابع المنذر الاهتمام ببهرام وقد كان قريبًا له وصديقًا وأخًا بالرضاعة، وتعلّم بهرام علمَ النجوم والرمل والرماية والفروسيّة وأظهر نبوغًا واستعدادًا عظيمَين.

في أحد الأيام، كان بهرام يتجوّل في قصر الخوَرنق، فعثر على غرفة مقفلة، فأخذ مفتاحها من الخازن ودخلها، فاذا فيها سبعة تماثيل رائعة الجمال، هنّ بنات ملوك سبعة بلدان، كما رأى أيضًا رسمًا له وعيون البنات شاخصة نحوه، وقد كُتب فوق رسمه: ملك الجهات السبع. تعلّق قلب بهرام بالتماثيل السبعة وصرفه عن هواياته الأخرى ومشاغله، وفي هذه الأثناء وصل خبر وفاة يزدجرد إلى اليمن، وأن كبار القوم قد حرموه ملك والده لأنّه في نظرهم قد تربى في البيداء "ولا يتقن المُلك"، ونصّبوا مكانه العجوز كسرى الذي يعود بنسبه الى "شهرياران، لم يتردّد بهرام في المطالبة بحقّه وقد ساعده المنذر بن النعمان في تجهيز جيش قويّ واتجها معًا باتجاه فارس، وفي هذه الأثناء كانت تجري المفاوضات ليتنازل

كسرى عن العرش سلمًا لبهرام ففعل، وحين تسلّم بهرام الحكم عفا عن أعدائه وحكم بالعدل ... ويصوّر نظامي قصّته مع الجارية المغنّية "فتنة" التي كانت ترافقه في رحلات صيده وفي أسفاره، وقصّة حروبه مع خاقان الصين وانتصاره عليه وتفكيره الدائم "بالتماثيل السبعة"، التي كان قد رآها في الخوَرنق...

بعد عدّة سنوات، عاد الملك الشاب لزيارة الديار التي تربّى فيها، وعاد من جديد وتأمّل في الخورنق بشوق ولهفة التماثيلَ السبعة... ويروي نظامي بعد ذلك قصّة كلّ واحدة منهنّ، وعلى الرغم من أنّ هذه القصص عاميّة خياليّة شبيهة بقصص ألف ليلة وليلة، فاقدة لعنصر الحقيقة، ولكنّها تأتي على لسان نظامي بأسلوب جذّاب وكلام جميل آسر... تنوعّ القصص وتنوّع الليالي والألوان وعلاقة الألوان بالفلك والسيارات إنّما هي تصوير لتنوع الأقدار (آيتي، ١٣٧٦ش، ص ٢٤-٣١)، وتبدّل أحوال الإنسان ... لقد وصلت قدرة نظامي الشاعريّة إلى أوجها في هذه المنظومة (زرّين كوب، ١٣٧٤ش [١٩٩٥م]، ص ١٣٣)، التي أنهاها في العام ٥٩٣هـ.

الكتاب الخامس: اسكندرنامه

هذه المنظومة على البحر المتقارب وتشتمل على جزأين:

"شرفنامه" او "مقبل نامه" الذي يتجاوز ٦٨٠٠ بيت و" اقبالنامه" أو "خردنامه" الذي يتجاوز ٣٨٠٠ بيت، القسم الأوّل "اسكندرنامه بَرّي" والقسم الثاني "اسكندرنامه بحري" وقد قيل إنّه أنهى الحزء الأوّل حوالى العام ٥٩٧هـ والثاني حوالى العام ٦٠٣هـ وكان في حدود الرابعة والستين من عمره.

يروي نظامي في هذا الكتاب بجزأيه سيرة حياة الإسكندر... ولكنّ إسكندر النظاميّ مزيج من فيلسوف حاكم ونبيّ شرقيّ من نسل إبراهيم ممزوجَين معًا في شخصيّة الفاتح المقدونيّ، ولعلّ نظامي متأثّر هنا ببعض التفاسير الإسلاميّة التي ذكرت أنّ "ذا القرنين" الوارد ذكره في سورة الكهف في القرآن الكريم هو نفسه الإسكندر المقدونيّ، على الرغم من التفاوت والاختلافات بين شخصيّة المقدونيّ الحقيقيّة وبين "ذي القرنين" الذي يصوره القرآن الكريم فاتحًا حكيمًا مؤمنًا موحّدًا عادلًا...المهمّ أنّ إسكندر النظامي لا مثيل له في بطولاته وشجاعته

وأخلاقه، يرمز إلى الوحدة بين الحكيم والحاكم وبين النبوّة والحكم، ومع هذا فإنّ بطل الأسطورة الذي لا يعيش أبعاد الحياة العاديّة، لا يبدو مصمّمَ هذه المدينة الفاضلة وإنّما هو الشاهد عليها أو الكاشف لها... وإسكندر النظامي كذلك لم يخض حربًا من حروبه الّا دفاعًا عن المظلومين في وجه الظالمين، يؤدّي دورَ البطل المدافع عن المقهورين والمظلومين، وهو حكيم حاكم يراعي أخلاق نيقوماخس لأرسطو، وعلم السياسة المشّائيّة في أقواله وأفعاله.

يقود الإسكندر الحروب من العشرين حتى السبعين، من مصر وبابل والصين، ومن أرض البلغار والروس إلى دنيا الظلمات بحثًا عن ماء الحياة، ولكنّه يعود يائسًا من الحصول عليها ولكنّ قدمه راسخة في الحكمة، بحيث إنّ حرمانه من الحياة الأبديّة لم يدفعه إلى اليأس، بل صارت صحبة أهل الحكمة بالنسبة إليه أكثر إسعادًا وإمتاعًا له من العثور على نبع ماء الحياة الأبديّة. والحكمة جعلته واثقًا من أنّ نيلَ الخلود وإنْ أرضاه هو لا يضمن السعادة لمجتمعه، ولكي يكون حاكمًا حكيمًا.

بالمعنى الأفلاطونيّ يجب أن يبحث عن أنموذج لمجتمع سعيد، وهذا أهم من البحث أو العثور على ماء الحياة، وليس عجيبًا مع هذا النمط من التفكير، وبعد سبع سنوات من تفقّدٍ للعالم بشرقه وغربه، يخبره الملاك أنّه قد نال مرتبة النبوّة... وهكذا بعد حكم قصير لم يطل أكثر من خمس عشرة سنة، يرتقي من رتبة ملك شاب محارب إلى رتبة حكيم يدعو إلى الصلح وإلى نبي داعية...

تتناثر الحكم والآراء الفلسفيّة في أنحاء الكتاب ولا سيّما الجزء الثاني منه كلّها من بنات أفكار نظامي الرفيعة المستوى، نسبها إلى حكماء اليونان، وهي متقدّمة على سائر الكتب والدفاتر، وتتناسب بصورة كاملة مع شيخوخة نظامي وعمره المتداعي.

لقد وصل نظامي أخيرًا وهو في الشيخوخة إلى تصوير الدنيا الفضلى والمدينة الفاضلة التي كان يبحث عنها منذ شبابه وطيلة عمره، والتي جعل الإسكندر يبحث عنها في الجبال والصحارى وفي البحار واليابسة... هذه المدينة التي

فتحت بواباتها في وجه الإسكندر وفي وجه الشاعر كانت مدينة أهلِ الحقّ وأهل العدل، استغنت عن الثروات المكدّسة من دون ضرورة وعن القوّة المسلّحة بالتعصّب، ما من أحدٍ فيها يتجسّس على الآخر ويتّهمه جزافًا ولا تُجبى فيها الضرائب الباهظة ولا تُرتكب الجرائم، يتمايز فيها المعروف عن المنكر بواسطة العقل، والقانون يطبّق على الجميع ولا أحد فيها يتحدّى القانون أو يخرقه، ولا أحد ينحني تعظيمًا لغيره، وليس هنالك أيّ مجالٍ للكذب والسرقة والفتن وسفك الدماء... ويبدو أنّ نظامي في طرحه لهذه المدينة الفاضلة المثاليّة يعبّر عن رأيه في أنّ النظام الخيّر أو النظام الأحسن يمكن أن يتحقّق في العالم الإنسانّي كتحقّقه في العالم الكونيّ، ويجعل العالم الموجود من ناحيته الإنسانيّة متجانسًا ومتناسقًا أيضًا مع النظام الأحسن المسيطر على مساحة الكون كلّه.

لقد كان طرح هذه المدينة الفاضلة تتويجًا للأفكار المثاليّة التي طرحها نظامي في كتبه كلّها من مخزن الأسرار والتي تؤكّد إيمانه بالنظام الخيّر والأحسن الملائم للفطرة الإنسانيّة الخيّرة.

لقد كانت هذه المدينة المثاليّة آخر محطّات الأمل المنعش، قضى شيخ گنجه عمره كلّه يفسّرها ويعبّر عنها، وظلّ كلّ عمره يرى أنّ گنجه التي كان يشاهدها يوميًّا بمنظار هذه المدينة الفاضلة تستحقّ الترك وتستحقّ الهجران وتستحقّ الانتقاد. وكان البحث عن مدينة الأخيار يعطيه كلّ يوم وبالتدريج الأمل بإمكانيّة حصول الإنسان على مدينةٍ فاضلة واقعيّة.

المصادر:

١. نظامی گنجوی، أبو محمد الیاس بن یوسف، کلیات دیوان نظامی گنجوی، شامل مخزن الأسرار، خسرو و شیرین، لیلی و مجنون، هفت بیگر، شرفنامه و اقبالنامه، تصحیح وحید دستگردی، تهران، امیر کبیر، ١٣٣٥ش [١٩٥٦م].

المراجع:

٢. اتـه هرمـان، تاريـخ ادبيـات فارسـى، ترجمـه دكتـر رضـا زاده شـفق، تهـران، بنـگاه ترجمه و نشـر كتـاب، ١٣٢٧ش [١٩٥٨م].

٣. آيتي، عبد المحمّد، داسـتان خسـرو وشـيرين نظامي گنجوي، نشـر شـركت سـهامى كتابهاى جيبـى، ١٣٧٦ش [١٩٩٧م].

٤. بـراون، ادوارد، تاريـخ ادبيات ايران از فردوسـى تا سـعدى، ترجمه و حواشـى فتـح الله مجتبائى، تهران، مرواريـد، ١٣٤١ش [١٩٦٢م].

٥. بهار، محمّد تقي ملك الشعراء، (بى تا)، شعر در ايران، تهران، گوتنبرك.

٦. دستگردى، وحيد، (١٣٣٥ش) [١٩٥٦م]، گنجينه گنجوى، چاپ دوم.

٧. رضـا زاده شـفق، صـادق، (١٣٥٢ش) [١٩٧٣م]، تاريـخ ادبيـات ايـران، شـيراز، انتشـارات دانشـگاه شـيراز.

٨. زرّين كوب، عبد الحسين، (١٣٤٣ش) [١٩٦٤م]، باكاروان حله، تهران، نتشارات آريا.

٩. زرّيـن كـوب، عبد الحسـين، (١٣٧٤ش) [١٩٩٥م]، "پير گنجه در جسـتجوى ناكجا آباد، چاپ دوم، انتشارات سخن.

١٠. رياحى، ليلى، (١٣٧٦ش) [١٩٩٧م]، قهرمانان خسرو وشيرين، امير كبير، تهران.

١١. شهابى، علي أكبر، (١٣٤٣ش) [١٩٦٤م]، نظامى شاعر داستانسرا، تهران، ابن سينا.

١٢. صفا، ذبيح الله، (١٣٣٩ش) [١٩٦٠م]، تاريخ ادبيات ايران، تهران، ابن سينا.

١٣. صفا، ذبيح الله، (١٣٤٩ش) [١٩٧٠م]، گنج سـخن، شـاعران بزرگ پارسـى گوى و منتخب آثار آنـان، چاپ چهارم، ج ٢، تهران، ابن سـينا.

١٤. معين، محمد، (١٣٣٨ش) [١٩٥٩م]، تحليل هفت پيكر نظامى، تهران، دانشگاه تهران.

١٥. معين، محمد، (١٣٥٢ش) [١٩٧٣م]، فرهنك فارسى، شش جلد.

١٦. نفيسي، سعيد، (١٩٢٣ م)، "شرح حال نظامى"، ارمغان، دوره پنجم، شماره ٥.

١٧. نفيسي، سعيد، "نظامى در اوروبا"، مهر، سال سوم، شماره ٤.